

الفصل الأول

تمهيد

الحضارة ...

تعريفها، نشأتها وأطوارها
عناصرها وعوامل تكوينها.

obeikandi.com

الحَضَارَة

تعريفها، نشأتها وأطوارها

الحضارة فى أصل اللغة الإقامة فى الحضرة : يقال فلان من أهل الحضرة (١)
وفلان من أهل البادية، وفلان حضرى، وفلان بدوى، قال القطامى :
فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا (٢)

ثم أريد منها ما يستتبع الإقامة فى الحضرة من تعاون وتأزر، وتبادل للأفكار والمعلومات فى شتى شئون الحياة؛ من علوم وعمران، وثقافة وعرفان، وما إلى ذلك مما يتصل بتقدم الإنسان، وترقيه فى مناحى الحياة المختلفة؛ وذلك أن اجتماع الناس فى مكان وقرارهم به إنما يكون للتعاون على دفع الضرر، وتحصيل أسباب المعاش بالزراعة والصناعة، والتجارة، والفنون والعلوم المختلفة، والترقى بها حتى تصل إلى مداها المقدر لها .

فالحضارة إذن هى : مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم فى نواحي نشاطها الفكرى والعقلى من عمران وعلوم، ومعارف وفنون وما إلى ذلك، والترقى بها فى مدارج الحياة ومسالكها حتى تصل إلى الغاية التى تواتيها بها أحوالها وإمكانياتها المختلفة .
أو هى كما قال العلامة ابن خلدون: «أحوال عادية زائدة على الضرورى من

(١) قال فى لسان العرب: «والحاضرة خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار...» - اهـ، وفى القاموس: «والحضر محركة والحضرة والحاضرة والحضارة ويفتح خلاف البادية والحضارة الإقامة فى الحضرة» .

(٢) لسان العرب، وقال المتنبى:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
والتطرية: المعالجة .

أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه (١)، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر . . (٢) .

وعرفها ول ديورانت بأنها: « نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى (٣) » .

وهذه التعاريف الثلاثة متقاربة، ويظهر ذلك بشيء من التأمل .

* * *

(١) الرفه: لين العيش . رفه الرجل كمنع رفها ويكسر ورفوها لان عيشه - القاموس .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون فى فصل: ن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول .

(٣) مقدمة قصة الحضارة ج١ ص ٣ ، وسيزداد معنى الحضارة وضوحاً فى الفصل التالى .

نشأة الحضارة وتطورها

إن اجتماع النوع الإنساني أمر ضروري؛ فليس في استطاعة إنسان وحده أن يهيئ لنفسه وسائل ارتفاقه، وتحصيل حاجه^(١)، وما يتطلبه معاشه إلا بمعاونة أخيه الإنسان، كما لا يمكنه أن يدافع عن نفسه إلا بالاستعانة بأبناء جنسه، وهذا ما عبر عنه الحكماء قديما بقولهم: «الإنسان مدني بالطبع»^(٢)؛ فإذا كان الاجتماع، وكان التعاون حصل له التغلب على أمر المعاش، والدفاع عن النفس.

وإذا ما اطمأن إلى ذلك بدأت الحضارة، وأخذت في النمو والازدهار، وسارت في طريقها حتى يبلغ مداها. يقول العلامة ول ديورانت:

«إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطوع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها^(٣)».

ومع أن اجتماع النوع الإنساني ضروري وطبعي فإن أجيال الناس مختلفون في أحوالهم باختلاف نحلهم^(٤) في المعاش؛ فمنهم من ينتحل^(٥) القيام على الحيوان من الغنم والبقر والإبل، وهم أهل البادية الذين تلجئهم الضرورات إلى طلب المسارح^(٦) والمراعى لحيواناتهم التي يعيشون بنتاجها، ويكون اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم، ومعاشهم بالقدر الذي يحفظ الحياة، ويحصل بلغة العيش^(٧) من غير

(١) حاجه جمع حاجة .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون في فصل: العمران البشري .

(٣) مقدمة قصة الحضارة ج١ ص ٣ .

(٤) نحلهم : طرائقهم ومذاهبهم في معاشهم .

(٥) ينتحل : يلزم نفسه؛ انتحل فلان كذا وكذا معناه قد ألزمه نفسه وجعله كالمملك له -

لسان العرب .

(٦) المسارح : جمع مسرح وهو الموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعى - لسان

العرب .

(٧) بلغة العيش : البلغة بالضم ما يتبلغ به من العيش أى ما يكتفى به - القاموس .

مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك، وما تزال طرق معاشهم وعاداتهم وطبائعهم كما كانت منذ آلاف السنين (١) .

ومنهم من يستعمل الغراسة والزراعة، والصناعة والتجارة والفنون وغيرها وهؤلاء هم أهل الحضرة (٢) .

وإذا اتسعت أحوالهم، وحصل لهم، ما فوق الحاجة من الغنى والرفاهية دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضروري، واستكثروا من الأقوات والملابس واختطاط المدن والأمصار للحضرة .

وفي المدن والأمصار تزيد أحوال الرفه والدعة فتجىء عوائد الترف البالغة مبالغها؛ فيتخذون القصور، ويعالون في صرحها، ويبالغون في تنجيدها، (٣) واستجادة ما يتخذونه لمعاشهم، وينتهون في العمران والعلوم والمعارف، وما إلى ذلك إلى المدى الذى تؤهلهم له أحوالهم وظروفهم الخاصة بهم (٤) .

وذلك أن المدينة يتجمع فيها - غالباً - ما ينتج الريف من ثراء، وما يبرز فيه من نوابغ العقول، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة فيها على مضاعفة وسائل الراحة والترف، وفيها يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار؛ ومن ثم تتلاقح العقول، ويسمو التفكير، ويرهف الذكاء، ويستثار فيه قوته على الابتكار والإبداع .

وفي المدينة ترغب فئة من الناس عن احترام الأشياء المادية، ويتوافرون على

(١) حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون ص ٧٨ .

(٢) يقول ول ديورانت: أول صورة تبدت فيها الثقافة هي الزراعة؛ إذ الإنسان لا يجد نتمدنه فراغاً وميراً إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته، ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه . في هذه الدائرة الضيقة من الطمانينة - أعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام - نرى الإنسان يبني لنفسه الدور والمعابد والمدارس ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج - قصة الحضارة ج ١ ص ٥، وراجع طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص ٦٥ .

(٣) الصرح: القصر وكل بناء عال . والتنجيد: التزيين - القاموس .

(٤) يقول ابن خلدون فى فصل انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة: « والحضارة إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه »، وراجع طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص ٦٦، ٦٥ .

دراسة العلوم والأدب، والفلسفة والفنون، ويبرزون فيها ويستجون؛ وبذلك يدفعون عجلة الحضارة إلى الأمام .

حقاً إن المدنية تبدأ في كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن (١) .

وبهذا ظهر: أن أهل البادية هم الذين تلجئهم ظروف معاشهم إلى الاكتفاء بما هو ضرورى .

وأن أهل الحضرة هم الذين لا يكتفون بالضرورى، وإنما يحصلون الحاجى والكمالى؛ وهكذا يسير أهل الحضرة فى طريق الرقى والعرفان، والتقدم والعمران وما إلى ذلك من نواحى النشاط المختلفة .

ويكون ذلك متفاوتا فيهم بحسب مراكز أمصارهم، وبنابيع معاشهم، ومجتمعهم وأحوالهم . وستعرض لذلك فى الفصل التالى .

* * *

(١) راجع مقدمة قصة الحضارة ج١ ص ٥ .

عناصر الحضارة وعوامل تكوينها (١)

للحضارة عناصر تتألف منها، وتوحد بوجودها، ولها عوامل تكوينها وتستحث خطاها، وعوامل تنضج بها أو تعوق مسراها .

وعناصرها - كما يرى بعض الفلاسفة وعلى رأسهم العلامة ول ديورانت أربعة:

- ١- الموارد الاقتصادية .
- ٢- القاليد الخلقية .
- ٣- النظم السياسية .
- ٤- متابعة العلوم والفنون .

وسنرى فيما بعد أن حضارة الإسلام قد استوعبت هذه العناصر وعينت بها، وبرزت فيها وتفوقت .

وأما عوامل تكوينها فكثيرة؛ ومن أهمها :

- ١- العوامل الجغرافية .
 - ٢- العوامل الاقتصادية .
 - ٣- العوامل الثقافية .
 - ٤- العوامل الدينية .
 - ٥- العوامل الأخلاقية .
 - ٦- العوامل النفسية .
 - ٧- العوامل الجيولوجية .
 - ٨- التربية .
- ١- العوامل الجغرافية :

إن الأمطار والمياه من أهم العوامل للحضارة؛ فالماء وسيلة الحياة، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس .

والإقليم الذى تجود تربته بالطعام أو المعادن، وأنهاره تهيبى له طريقا هينة للاتصال بغيره، وشواطئه مليئة بالمواضع التى تصلح مرافئ طبيعية بسفنه التجارية،

(١) مرجعت فى هذا تفصل مقدمة صفة حضارة لعلامة ول ديورانت ص ١٣

وما بعدها .

ويقع على طريق رئيسى للتجارة العالمية؛ مثل هذا تزدهر فيه الحضارة وتبتسم له .
وحرارة الأقطار الاستوائية، وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر
لا تهيب للمدنية أسبابها؛ فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض من شأنه أن
يصرف الجهود عن الأخذ بأسباب التقدم والتمدين^(١)، ولا يذر للإنسان شيئاً من
الجهد ينفقه فى ميدان الفنون والعلوم، وجمال التفكير .

٢- العوامل الاقتصادية :

للعوامل الاقتصادية أهمية كبرى فى تكوين الحضارة؛ فقد تكون قبيلة من
قبائل البدو كبدو بلاد العرب على درجة نادرة من الذكاء والفتنة، وقد تبنى من
ألوان الخلق أسماها كالشجاعة والكرم، وإباء الضيم والشمم، لكن ذكائها من غير
وجود عوامل اقتصادية تطمئننها على مورد محقق من الطعام والماء ستنفقه فى شن
الغارات، ومخاطر الصيد، وارتياح موارد القوت بحيث لا يبقى منه شيء لوشى المدنية
وترفها، وعلومها وفنونها .

٣- العوامل الثقافية :

العوامل الثقافية لها شأن أى شأن فى نشأة الحضارة؛ فالوحدة اللغوية مثلا لا بد
منها إلى حد كبير لتكون وسيلة بين الناس لتبادل الأفكار والمعلومات الأمر الذى
يجعل الحضارة تسير بخطى واسعة نحو الكمال .

٤- العوامل الدينية :

من الضرورى أن يكون بين الناس فى مجتمعهم كل الاتفاق أو بعضه فى
العقائد الرئيسية، وجانب من الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة؛ لأن ذلك يرفع الأخلاق
من مرحلة نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، ويجعل حياتنا أشرف
وأكثر احتمالاً واطمئناناً لنوائب الزمن .

٥- العوامل الأخلاقية :

للعوامل الأخلاقية أهمية ذات بال؛ إذ لا بد من قيم أخلاقية تسود الجماعة

(١) التمدين: التنعيم - القاموس .

وتربط بينها حتى تكون هناك قواعد يرضاها الجميع، ويعترف بها حتى الخارجون عليها؛ وهذه القيم توجد عن طريق الأسرة أو المدرسة أو المسجد أو غير ذلك .

٦- العوامل النفسية :

لا بد أن تتوافر العوامل النفسية الدنيقة لتنشأ الحضارة، فمثلا لا بد أن يشعر الناس بأنه يسودهم نظام سياسى مهما يبلغ ذلك النظام حداً يدنو به من الفوضى . كما لا بد لهم من أن يشعروا بأنهم مطمئنون على أرواحهم، ولا يتوقعون الموت والهلاك عند كل منعطف فى طريق حياتهم، وإلا فلا يستطيع مثل هذا المجتمع أن يأخذ بأسباب الحضارة وهو فى مثل هذه الحالة من القلق والاضطراب والخوف .

٧-العوامل الجيولوجية :

العوامل الجيولوجية ذات أثر يعتد به فى الحضارة؛ فقد تزدهر المدنية فى إقليم من الأقاليم، وفيما هو كذلك ينعم بمتع الحياة، ويرفه بمسراتها ينكب بزلزال شديد يقضى على كل ما فيه .

٨- التربية :

وأخيراً لا بد من تربية، ونعنى بها الوسيلة التى تنتقل بها المدنية من جيل إلى جيل مهما كانت هذه الوسيلة بدائية؛ فلا بد أن نورث الناشئة تراث القبيلة وروحها؛ فنورثهم عن طريق التقليد، أو التعليم، أو التلقين معارفها وعلومها وفنونها وأخلاقها وتقاليدها، سواء أكان المربي هو الأب أو الام أو المعلم أو المرشد؛ لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التى تحول هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

انعدام هذه العوامل :

هذا ولو انعدمت هذه العوامل بل بما لو انعدم واحد منها لحاز أن يتقوض أساس المدنية؛ فانقلاب جيولوجى خطير: أو انحلال عقلى أو خلقى ينشأ عن الحياة فى الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات، أو تركيز للثروة تركيزا محزنا ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات، والثورات الهدامة والإفلاس المالى، أو مشاكل ذلك

قد يؤدي إلى فناء المدنية؛ إذ إنها ليست شيئاً مجبولاً في فطرة الإنسان كلا ولا هي شيء يستعصى على الفناء، فإذا حدث اضطراب خطير في عوامدها الاقتصادية أو في طريق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون ذلك عاملاً على فنائها، فالإنسان - كما قلنا - يختلف عن الحيوان في شيء واحد وهو التربية .

والمدنيات المختلفة هي بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها، ثم بفضل الكتابة التي تنقل تراث الآباء للأبناء، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التي تربط الصلات بين الناس قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات؛ وبذلك نصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيّتنا؛ فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق الموت بنا لنسلمه إلى أبنائنا .

* * *